المحسوبية: دراسة عينية في التبادل غير المكافئ (1)

المؤلف: طرابلسي فواز
التاريخ: 11-06-2004
رقم العدد:9815

لا يحظى موضوع »المحسوبية« بما يستحقه من الاهتمام في النتاج الفكري، على الرغم من حضوره الكاسح في الحياة السياسية. ونعني بالمحسوبية علاقات تبادل الخدمات الشخصية والجماعية لقاء تقديم الولاء السياسي، تلك التي يسميها بعض الباحثين »الزبائنية«. وقد آثرنا استخدام »المحسوبية« على الترجمة الحرفية للمصطلح الفرنسي Clientelisme لأن المصطلح الاول اكثر تعبيرا عن علاقة الهرمية والاستتباع بين اطراف الشبكة المعنية. النص المثبت ادناه دراسة عينية لشبكة من علاقات المحسوبية في بلدة مشغرة (البقاع الغربي) خلال العقود الاربعة الاولى من القرن العشرين. محور تلك الشبكة سليمان طرابلسي، الوجيه المحلي ومالك الارض (توفي 1946). تحلل الدراسة اشكال الوساطة التي يؤديها الوجيه المحلي بين محسوبيه والسلطات، وطبيعة وآليات الخدمات التي يقدمها ويتلقاها، ونمط التصورات والتمثلات لعلاقات المحسوبية لدى كل واحد من عناصر تلك الشبكة. ويتبين في الخلاصة ان شبكة المحسوبية، وان تكن تنطوي على مقدار لا بأس له من التماسك السياسي، الا انها لا تخلو من التناقضات والنزاعات الاجتماعية والاقتصادية بين مكوناتها، كما يتبين ان عملية تبادل الخدمات فيها عملية غير متكافئة تعمل دوما لصالح المتنفذين سياسيا والمسيطرين اقتصاديا. والنص الذي ننشره على قسمين، فصل من كتاب يصدر قريبا عن »دار رياض الريس للكتب والنشر« بعنوان »يا قمر مشغرة: المحسوبية، الاقتصاد، التوازنات الطائفية« وهو قراءة في الارشيف العائلي لسليمان طرابلسي. شبكة المحسوبية هي شبكة مثلثة الاطراف يحتل الوجيه واسطة العقد فيها. فهو أولا قيدوم عائلته يدير علاقاتها والعائلات الحليفة في مشغرة ويربط بين

حزبيته العائلية وبين الوجهاء والوكلاء في المزارع المجاورة من جهة وبين الوجهاء والساسة والنواب وموظفي سلطات الانتداب والدولة اللبنانية من جهة ثانية. وتقوم هذه الشبكة على مجموعة من العلاقات التراتبية البالغة التنوع والتعقيد. الحزبية العائلية تشتمل الحزبية العائلية التي يتربع على رأسها سليمان طرابلسي، وتسيطر عمليا على السلطة في البلدة، على عائلات أبو خليل والدبس والحاج وأبو عراج وبارود والبطل وغزال، تناصرها عائلة الشايب الشيعية. وفي ظل سيطرة تلك الحزبية، ظلت رئاسة المجلس البلدي لعشرين سنة معقودة لشفيق طرابلسي، ابن شقيق سليمان، وقد خلفه فيها لفترة نسيب ابو سمرة طرابلسي، صهر سليمان المتزوج من ابنته جولي، ووكيل اعماله. الى هذا، فالوجيه يعيّن ايضا النواطير والمخاتير في البلدة والمزارع مع ما يستتبعه ذلك من إشراف فعلي على كامل نشاطات هؤلاء، بما في ذلك التحكم بتوزيع مياه الري. وسوف يبقى الحاج حسين عواضة، زعيم عائلة الشايب، مختارا للحارة التحتا لمدة ثلاثين عاما بينما توارث آل الغزال، وهم عائلة من الاسكافيين الكاثوليكيين، المخترة في الحارة الفوقا لفترة طويلة من الزمن. اللفيف العائلي وخصومه في الأصل، نمت الزعامة الطرابلسية على حساب حزبية آل رزق. وهم عائلة من مالكي الارض الكاثوليك. وفد عميدهم نجيب رزق من جب جنين وكان تاجر أقمشة ثم استقر في البلدة ومارس التجارة والربا وشراء الحبوب وشرانق الحرير. ومن خلال تلك النشاطات، تمكن آل رزق من استملاك القسم الاكبر من مزرعتي ميدون ولوسيا وعدد من قطع الارض في مشغرة ذاتها. على ان آل رزق، وهم فرع من آل ابراهيم، ما لبثوا ان فقدوا موقعهم الاجتماعي والثروة لصالح آل طرابلسي، وسرعان ما تحالفوا مع هؤلاء وصاهروهم، ما أدى الى تمركز كبار المالكين الزراعيين داخل حزبية واحدة ولكن بقيادة آل طرابلسي. إزاء هذا الانقلاب في موقع آل رزق، انتقلت قيادة حزبية آل ابراهيم الى فرع ناصيف فباتوا المنافسين التقليديين لآل طرابلسي. وآل ابراهيم عائلة من صغار مالكي الارض والتجار والحرفيين والمكارية، تلتف حولهم عائلات الصايغ وغطاس وبارود ورفول وأبو غنّام، وجميعهم من الكاثوليك، وقد انضمت اليهم عائلات ارثوذكسية (آل الحجار) وبروتستانتية (آل حبوش) ومارونية (آل كرم) وحالفهم في الحارة التحتا آل فخر الدين، خصوم آل الشايب. أما السمات البارزة للانقسام السياسي المحلي فيمكن اجمالها على النحو الآتي: 1 تمحور الاستقطاب الرئيسي داخل البلدة، اول الامر، على الوظيفة الاقتصادية الرئيسية اي الزراعة. وكان قطبا الاستقطاب عائلة تستمد نفوذها وقوتها من ملكية الارض، في مقابل عائلة تعتمد على المال بالدرجة الاولى. اما انقسام العائلات الموالية بين هذه الحزبية او تلك فيصعب اعطاء تفسير واف له. إلا ان

اربعة عوامل تفعل فعلها فيه: الجوار، والمهنة، والموقع الاجتماعي والمصاهرة. كان حي الخان بؤرة الحزبية المناوئة لآل طرابلسي تسكنه عائلات حجار وإبراهيم وكرم. وكما العادة، يندغم الجوار بالموقع الاجتماعي والمهني، حيث ان سكان الحي يغلب عليهم الطابع الحرفي وهم أقل يسراً من سكان حي آل طرابلسي ولفيفهم الساكنين حول نبع الضيعة والكنيسة. يضاف الى هذا علاقات المصاهرة بين العائلات الثلاث المذكورة. ومعلوم ان آل حجار وآل ابراهيم تحولوا من الكثلكة الى الارثوذكسية كفعل احتجاج وتوكيد هوية ضد الزعامة الطرابلسية. ففي بنائهم كنيستهم الارثوذكسية وسكناهم حولها، تحول فعل الانشقاق المذهبي الى توكيد لهوية سياسية اجتماعية متمايزة عن المسيطرين على مقدرات البلدة الاقتصادية والسياسية. من جهة اخرى، تبدو اهمية الجوار والمصاهرة بينة في الانقسام الشيعي إذ إن عائلة الشايب بزعامة آل عواضة والتي تضم أجباب شرف ورضا ومحيدلي تسكن حارة الفوقا وحي الصهاريج وهو الحي الذي يتجاوز حارة التحتا على الضفة الاخرى من نهر الشتا، فيما آل فخر الدين ولفيفهم يسكنون الحارة التحتا بنوع خاص. 2 شكلت سيطرة آل طرابلسي الاقتصادية على المزارع مصدرا اضافيا من مصادر تعزيز سلطة العائلة، ومعها حزبيتها المحلية، داخل مشغرة ذاتها. وذلك بمعنيين اثنين: اقتصادي من جهة وسياسي من جهة ثانية. اذ كان دور تلك العائلة في التوسط بين سكان المزارع والسلطة المركزية (في مركزيها البقاعي والبيروتي) سببا اساسيا في اتكالهم عليها ودورانهم في فلكها. 3 كانت الحزبيتان العائليتان مختلطتين من الناحية الطائفية. على ان مركز الثقل والقيادة في كليهما كان معقود اللواء للمسيحيين في البلدة كما في المزارع.

وبين المسيحيين كانت القيادة للكاثوليك دون سائر المذاهب، اي الارثوذكس والموارنة والبروتستانت. »المزارع« ينتظم المحاسيب في الحزبية العائلية داخل شبكة تراتبية من الوسطاء والوكلاء والحلفاء من سكان المزارع (الذين هم اعيان قراهم ومزارعهم أم انهم لا يلبثون ان يتحولوا بدورهم، بسبب من علاقتهم برأس الحزبية العائلية في مشغرة، الى وجهاء يفرضون انفسهم على قراهم والمزارع). ارتكزت الحزبية الطرابلسية على حلفاء نافذين في المزارع. ابرزهم الشيخ علي الزين، إمام »المزارع«، الذي كان خلال فترة طويلة شريك آل طرابلسي في تبغ قليا وهو مالك اكبر رخصة لزراعة التبغ في المزارع تبلغ حوالى 9000 متر مربع، حسب قيود سليمان طرابلسي ذاته. الى الشيخ علي، يضاف الشيخ حمود شبلي وأسعد جابر في لوسيا والشيخ نجيب الخشن في سحمر. وكان هؤلاء يلعبون دورا مزدوجا في علاقتهم بالوجاهة المشغرانية فهم وسطاؤها لدى فلاحي قراهم والمزارع، خاصة في ما يتعلق بالخدمات والوساطات، من جهة، وهم من جهة ثانية،

المدافعون عن مصالح هؤلاء الفلاحين تجاه آل طرابلسي ورزق وفي مواجهتهم اذا اقتضى الامر. أضف الى هؤلاء الوكلاء ومديري الاعمال في المزارع من اهل مشغرة المنتمين الى العائلات المسيحية الحليفة لآل طرابلسي، أمثال آل الحاج وآل ابو غنّام، ممن نشاهد تواقيعهم على الصكوك والسندات والحجج بما هم شهود حال. على الصعيد المناطقي، كان لسليمان صلة بشبل دموس، الشاعر الزحلي والنائب عن البقاع، تأتي على ذكرها وثائقنا مرة واحدة فقط. ويرد في وثائقه مرة واحدة اسم ابراهيم ابو خاطر من وجهاء الكاثوليكيين التقليديين. على ان علاقته المميزة في زحلة كانت مع موسى نمور وتاليا مع إلياس طعمه السكاف. موسى نمور صحافي ونائب ينتمي الى عائلة تجارية مارونية مالية متوسطة الحال. ارتبط باكرا بالانتداب الفرنسي وانتخب رئيسا لمجلس المندوبين، الهيئة التشريعية السابقة على قيام المجلس النيابي العام 1922 وقد شغل في ما بعد عدة مناصب وزارية منها وزارتا المالية والداخلية خلال الاعوام 1928 و1929 و1937 و1942. وتوفي موسى نمور عام 1946. أما إلياس طعمه السكاف فنائب كاثوليكي اشتهر في بداية القرن بأنه السياسي الزحلي الذي ناهض احتكار وجهاء »العائلات السبع« لتمثيل البلدة سياسيا ونجح في استقطاب جمهور عامي كاثوليكي واسع اضافة الى الاقليتين المارونية والارثوذكسية في البلدة. ولجأ طعمة السكاف الى اسلوبين جديدين، مما جعل منه نموذجا للسياسي الذي يبني زعامته على الخدمة والتنفيع. اولا، لافتقاره الى قاعدة اجتماعية تقليدية، ركيزتها ملكية الاراضي، راح طعمة يكوّن لنفسه شعبية من خلال الاستخدام المكثف للمال وتأدية الخدمات الشخصية والعائلية لاستقطاب الناخبين. ثانيا، امتاز الياس طعمة على منافسيه في زحلة بشعبيته في قرى البقاع الاسلامية. وقد استند الى تلك الشعبية لتأمين تفوقه على خصومه المحليين. بدأ طعمة السكاف حياته العملية وكيلا لآل سرسق البيروتيين على ملكيتهم الكبيرة في منطقة عمّيق، جنوبي قب الياس. وكانت تلك المنطقة في الأساس مليئة بالمستنقعات منحتها السلطات العثمانية لنجيب سرسق عام 1895 لاستصلاحها، فأنفق مبالغ كبيرة من المال لتجفيفها وتنظيفها وتوصل الى استصلاح اربعة آلاف دونم من الاراضي البالغة الخصوبة. وقد توصل الياس السكاف مع الوقت الى تسجيل القسم الاكبر من اراضي عميق باسمه بما هو دائن لآل سرسق. وتقول رواية شائعة في المنطقة ان معظم تلك الديون كانت ديون قمار. سياسيا، كان السكاف يتأرجح بين تأييد الانتداب ومعارضته. وقد وقف في صف جماعة الانتداب خلال المنافسة على الرئاسة بين إميل إده وبشارة الخوري سنة 1937. وهو صاحب الصوت الأوحد الشهير الذي رجح كفة إده على الخوري في تلك الانتخابات. ويقول الخوري في مذكراته ان سلطات الانتداب

استمالت السكاف الى صف إده في اللحظة الاخيرة بعد ان وعدته بتسجيل املاك عمّيق باسمه. من جهة اخرى، يجدر التوقف عند استمرارية التحالفات بين وجهاء مشغرة ووجهاء الشيعة والدروز من أبناء الأسر التي مارست نفوذا ما على البلدة والجوار عبر التاريخ. في الجنوب، كان سليمان طرابلسي حليفا لآل الأسعد. ولنتذكر ان شقيقه داوود عمل لفترة سكرتيرا لكامل بك الأسعد. وقد أمّن هذا التحالف لسليمان مقدارا لا يستهان به من النفوذ على مسلمي البلدة والمزارع. لكن هذه العلاقة القديمة مع زعماء الطيبة الوائليين لم تحل دون انعقاد علاقات وتبادل خدمات مع منافسيهم آل الزين في جبشيت والنبطية. يشهد على تلك العلاقة أقلاً تبادل البرقيات في المناسبات. على المنقلب الآخر من جبل لبنان، كان لآل طرابلسي علاقات مميزة وقديمة مع آل جنبلاط، كما أسلفنا، زمن عميد العائلة، الياس طرابلسي. وإذا كنا لا نملك رسائل ومدونات عن تلك العلاقة فإننا نعرف أنها عادت وترسخت على قواعد جديدة خاصة بعد الاستقلال. فسوف ينجذب كثيرون من اهل مشغرة من محازبي آل طرابلسي، والمقيمين في بيروت منهم خصوصا، الى الزعامة الجنبلاطية المتجددة بقيادة كمال جنبلاط. وقد كان فؤاد رزق، ابن الاسرة الحليفة لآل طرابلسي والمحامي المقيم في بيروت بعد انتقاله اليها من زحلة، في عداد مؤسسي الحزب التقدمي الاشتراكي عام 1949، وظل لفترة عضوا في لجنة الحزب الادارية. وجريا على ذلك، انضم عدد من آل طرابلسي المقيمين في بيروت الى الحزب امثال تاجر الجلود من جب أبو سمرا الذي انتقل الى القطاع الفندقي، او ذاك الموظف في وزارة الداخلية الذي التحق مفتشا في الأمن العام وفرزه كمال جنبلاط لسنوات مرافقا شخصيا له. وقد مارس كمال جنبلاط تأثيرا متواصلا على الطريقة التي يقترع بها آل طرابلسي وجمهورهم الانتخابي في مشغرة في الانتخابات النيابية. ويذكر تدخل شهير لكمال جنبلاط شخصيا لدى آل طرابلسي للاقتراع لشبلي العريان في انتخابات العام 1962 علما بأن مسيحيي مشغرة كانوا سلبيين جدا تجاه العريان لتعدياته الكثيرة على المسيحيين خلال ثورة العام 1958. وعلى الرغم من ذلك، فقد لبّى العديد من ابناء الحزبية الطرابلسية دعوة الزعيم الجنبلاطي وصوّتوا للعريان. رأس مال الوجيه المحلي هو علاقاته بالخارج. اضافة الى علاقاته بالسياسيين، كانت لسليمان سلسلة من العلاقات السياسية المقامة مع المركز، مركز المحافظة او العاصمة. نجد ان سليمان طرابلسي كان واسع الصلات اولا بأول مع عدد من كبار موظفي الانتداب، امثال بريفا أوبوار A. Privat Aubouard الحاكم بالوكالة لدولة لبنان الكبير اضافة الى عدد لا يستهان به من الموظفين الاداريين الوطنيين من مختلف المستويات. من هؤلاء مدير ناحية مشغرة ذاتها، إميل مشاقة، وإن تكن العلاقة

بينهما لم يسدها دائما الوئام، وسليم تقلا، »متصرف لواء البقاع« كما كان يسمى المحافظ آنذاك، ومأمور بريد وتلغراف زحلة، وجادرجيان مغرديج، رئيس تحريرات الديون العمومية، وكنعان الضاهر، الوجيه والقائمقام السابق لقضاء جزين، وناظم عكاري، رئيس دائرة في محافظة لبنان الشمالي... الخ. ولا تقتصر العلاقات بالخارج على مثل هذه العلاقات السياسية والادارية، فقد كانت لسليمان صداقات موزعة عبر البلاد مع وجهاء وأعيان تمتد من راشيا الى دير القمر فطرابلس، تتضمن تبادل الزيارات والضيافات ولكنها علاقات قابلة للتوظيف في تبادل الخدمات عند الضرورة. (*) كاتب وسياسي لبناني

الكلمات الدالة

مشغرة | لبنان | الانتماء السياسي | طرابلسي سليمان | الخدمات الاجتماعية